الحلقة (٣٣)

➜مسألة ما يراد بلفظ الجهة وما هو موجود وما هو معدوم؟

لفظ الجهة قد يراد به **ما هو موجود**، وقد يراد به **ما هو معدوم**، ومن المعلوم أنه لا يوجد إلا خالق أو مخلوق في هذا الوجود، فالخالق هو سبحانه وتعالى، وبقية المخلوقات هي المخلوقة، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقا، والله تعالى لا يحصره مخلوق، فالله سبحان منزه عن ذلك لا يحصره شي ولا يحيط به شيء من المخلوقات تعالى الله عن ذلك.

وإن أريد بالجهة أمر عدمي وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلا الله تعالى، فإذا قيل إنه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح، ومعناه أنه فوق العالم، حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع عال عليهم سبحانه وتعالى، ونفاة لفظ الجهة الذين يريدون بذلك نفي العلو، يقولون الله تعالى لا في جهة، يريدون بذلك نفي العلو كي لا يثبتون أن الله تعالى عال على خلقه، فالله تعالى عال على خلقه ويجب أن نثبت له صفة العلو الله سبحانه وتعالى.

يذكرون من أدلتهم "أن الجهات كلها مخلوقة، وأنه كان قبل الجهات -كيف يرتبون للدليل ويصفونه حتى يأتي على هوتهم!!- وأن من قال إنه في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم، أو أنه كان مستغنيا عن الجهة ثم صار فيها"، وهذه الألفاظ لم يرد في الشرع لفظ الجهة، لذلك استعمالها يجب أن يكون استعمالا حذرا، فإنها إذا أطلقت فقد يراد بها حق وقد يراد بها باطل، فهذه الألفاظ ونحوها إنما تدل على أنه ليس في شيء من المخلوقات، سواء سمي جهة أو لم يسم، وهذا حق، لكن الجهة ليست أمراً وجوديا، بل أمر اعتباري، لفظ الجهة ليست أمر وجودي ليس شيء يمسك باليد إنما هي أمر اعتباري، يرد عليهم فيقال: لفظ الجهة يراد به شيء اعتباري، ليس شيء موجودا نحمله ونضعه وهكذا، ولا شك أن الجهات لا نهاية لها، وما لا نهاية له فليس موجود، فهو أمر اعتباري.

قول الشيخ رحمه الله تعالى "**لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات**" هو حق باعتبار أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته بل هو محيط بكل شيء وفوقه.

وهذا المعنى هو الذي أراده الشيخ رحمه الله تعالى لما يأتي في كلامه "**أن الله محيط بكل شيء وفوقه**"، وكلامه الثاني يقيد الأول الذي يكون لأهل البدع مدخل فيه واستدلال، فإذا جمع كلاميه رحمه الله وهو قوله "**لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات**" وبين قوله "**إنه محيط بكل شي وفوقه**" علم أن مراد الطحاوي رحمه الله أن الله لا يحويه شيء ولا يحيط به شيء، كما يكون لغيره من المخلوقات، وأنه تعالى هو المحيط بكل الشيء، العالي على كل شيء سبحانه وتعالى.

لكن بقي في كلامه شيئان

أحدهما: أن إطلاق مثل هذا اللفظ مع ما فيه من الإجمال والاحتمال -كان في تركه أولى، لو تركه لعافانا منه ومن الاحتراز له- وإلا تُسلط عليه وألزم بالتناقض لإثبات الإحاطة والفوقية ونفي جهة

العلو، وإن أجيب عنه بما تقدم من أنه إنما نفى أن يحويه شيء من مخلوقاته فالاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى.

الأمر الثاني : **أن قوله كسائر المبتدعات**، يفهم من كلام الطحاوي أن ما من مبتدع إلا وهو محوي، وفي هذا نظر، فإنه إن أراد أنه محوي بأمر وجودي فممنوع، فإن العالم ليس في عالم آخر، وإن أراد أمرا عدميا فليس كل مبتدع في العدم، بل منها ما هو داخل في غيره كالسموات والأرض، فالسموات والأرض داخلة في الكرسي، ومنه ما هو منتهى المخلوقات كالعرش، فسطح العالم ليس فيه غيره من المخلوقات، فقوله كسائر المبتدعات فيه نظر، قطعا للتسلسل كما تقدم.

ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال: **بأن كلمة سائر بمعنى البقية، يعني لا بمعنى الجميع**، وهذا أصل معناها، ومنها السؤر وهو ما يبقيه الشارب في الإناء، **فيكون مراده غالب المخلوقات لا جميعها**، إذ السائر على الغالب أدل منه على الجميع، فيكون المعنى أن الله تعالى غير محوي كما يكون أكثر المخلوقات محويا، بل هو غير محوي بشيء تعالى الله عن ذلك.

الشيخ رحمه الله لا يظن به أنه ممن يقول إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه بنفي بالنقيضين، كما ظنه بعض الشارحين لمتن الطحاوية، بل مراده أن الله تعالى منزه عن أن يحيط به شيء من مخلوقاته، أو أن يكون مفتقرا إلى شيء منها، العرش أو غيره.

وفي ثبوت هذا الكلام عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه نظر، فإن أضداده قد شنعوا عليه بأشياء أهون منه، فلو سمعوا مثل هذا الكلام لشاع عنهم تشنيعهم عليه، وقد نقل أبو مطيع البلخي عنه إثبات العلو كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وظاهر هذا الكلام يقتضي نفيه، ولم يرد بمثله كتاب ولا سنة، فلذلك يقال أن في ثبوت مثل هذا الكلام عن الإمام نظر، وإن الأولى التوقف في إطلاقه، فإن الكلام بمثله خطر، بخلاف الكلام بما ورد عن الشارع كالاستواء والنزول ونحو ذلك، فمن ظن من الجهال أنه إذا نزل الباري سبحانه إلى السماء كما أخبر الرسول أن (**الباري تعالى ينزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا، فيقول هل من داع فأستجيب له؟ هل من سال فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟**) سبحانه وتعالى، فهل يكون العرش فوقه؟ أو أن يكون محصورا بين طبقتين من العالم؟ فهذا القول مخالف لإجماع السلف ومخالف للكتاب والسنة، من ظن من الجهال أن الله سبحانه إذا نزل إلى السماء الدنيا في الثلث من الليل كما أخبر الصادق المصدوق: بأن العرش يكون خاليا منه، أو أن العرش سيكون فوقه، أو أنه يكون محصورا بين طبقتين من العالم، فقوله مخالف لإجماع السلف، مخالف للكتاب والسنة، كيف ذلك؟ قد يستشكل استشكال وهو معاصر أي في العصر الحاضر، يستشكله بعض الطلاب ألا وهو أنهم يقولون: إن الليل في هذه البلد يختلف عنه في بلد آخر، كأن يكون عندنا في السعودية الثلث الأخير من الليل الساعة الثالثة أو نحوه، يختلف عنه في اليابان، أو عنه في أوروبا وأمريكا، ويقولون كيف

يكون نزل الباري جل وعلا والوقت مختلف؟

نقول كلمة كيف ممنوعة في حق الله وتعالى، والله سبحانه له نزول لا كنزول المخلوقين، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، بل له نزول يليق بجلاله، فلا يجوز أن نقيس نزول الباري جل وعلا نقيسه بنزول المخلوق الضعيف، فالله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير يتنزل في الثلث الأخير من الليل، والكيف ممنوع كما قال الإمام مالك بن أنس: الكيف مجهول.

إذا دخلت في صفات الله بكيف ستضل، ليس في مسألة النزول فقط، ولا في مسألة الاستواء فقط، بل في كل صفات الله تعالى، إذا تدخلت بكيف فإنك ستلحد في أسماء الله وصفاته، فالله سبحانه منعنا من الكيف، وحجب عنا هذا الكيف، بل لا نستطيع أن ندرك هذا الكيف عن الله سبحانه، فطلب موسى عليه السلام من أولي العزم كليم الله طلب من الباري جل وعلا أن يراه، وقال له الباري لن تراني، ولكن الباري تجلى للجبل، وليس الجبل بأكرم على الله من موسى، ومع ذلك فقوى البشر لا تستطيع هذا الأمر، لأن لله في ذلك حكمة وابتلاء وامتحان، فكل صفات الباري عز وجل لا ندخل فيها بكيف، لأن الكيف هنا ممنوع، ولا يجوز في حق الله سبحانه وتعالى.

يقول الشارح "ومن ظن من الجهال أنه ظن إذا نزل إلى السماء الدنيا كما أخبر الصادق المصدوق، يكون العرش فوقه ويكون محصورا بين طبقتيه" العرش أعظم المخلوقات، ومع ذلك لا نعلم كيفية العرش وصفته؛ وإن وردت بعض الصفات في هذا الحديث، لكن هو خلق من مخلوقات الله لا نعرفه، جبريل عليه السلام عندما أتى النبي رآه مرتين فقط، وكيفية الملك لا يستطيع الناس تحمل هذه الكيفية والتعامل معها، لذلك كان يأتي جبريل بصورة رجل لا يعرفه أحد، ومرة بصورة دحية الكلبي، فرؤية الباري جل وعلا ثابتة في الكتاب والسنة في الآخرة وليست ثابتة في الدنيا.

يقول شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن محمد بن عبد الرحمن الصابوني رحمه الله قال سمعت الأستاذ أبا منصور بن حمشاذ بعد روايته حديث النزول يقول: سئل أبو حنيفة فقال: ينزل بلا كيف، أبو حنيفة يثبت النزول ويمتنع عن الكيفية، فالاستواء والنزول والعلو معلوم، والكيف مجهول، وإنما توقف من توقف في نفي ذلك لضعف علمه بمعاني الكتاب والسنة وأقوال السلف، ولذلك ينكر بعضهم أن يكون فوق العرش، بل يقول لا مباين ولا محايد، لا داخل العالم ولا خارجه، فيصفونه بالعدم والممتنع، ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلو والاستواء على العرش، ويقول بعضهم بحلوله في كل موجود، أو يقول هو وجود كل موجود ونحو ذلك، تعالى الله عما يقول الجاحدون والظالمون علو كبيرا.